التعاطف في العلاقات الإنسانية Sympathy in human relationships

أ. د سامر جميل رضوان* Prof. Dr. Samer J. Rudwan

للتعاطف معنى محدد كمفهوم مستخدم ضمن إطار العلاج النفسي أو مشتق منه. وقد يختلف هذا المفهوم عن معناه الحقيقي، علماً أننا نعيش هذا الشعور كخاصية شخصية دون أن نكون قد عرفنا المعنى العلمي له (أو التفهم المتعاطف).

والتعاطف هو أن يسعى الإنسان نحو فهم خبرات ومشاعر وأحاسيس الآخرين، وأن ينظر للأمور بعيون الآخرين، ويدخل في أعماقهم، ويعيش في عالمهم الخاص مع الحفاظ على مسافة معينة. وهذا يعني أن يحس الشخص بالمشاعر والأهمية الشخصية التي يعيشها الآخرون، وأن يعبر لهم عن ذلك، و يجعلهم يشعرون به دون تطفل أو جفاء. وإذا نجح الإنسان بذلك، على أكبر قدر يستطيع، فسيكون أقرب إلى العالم الداخلي للآخر و لا يستطيع اكتشاف المعنى الشعوري فحسب، وإنما المعنى الكامن خلف مستوى الشعور. وفي كل مرة ينبغي أن نكون متعاطفين، علينا ألا ننسى أننا لسنا الآخر، بمعنى أن نعيش الحالة وكأننا الآخر فعلاً دون أن ننسى أننا لسنا الآخر. إذ أنه لو أصبح الإنسان مثلاً يرى إشكالية الآخر من خلال منظور الآخر فقط، فلن يكون قادراً على رؤية جوانب أخرى. وإذا شعر الإنسان وادرك أن مشكلة الآخر هي مشكلته هو أيضاً بطريقة أو بأخرى، دون أن ينسى أنه ليس الآخر تماماً، فإذ ذلك يساهم في حمايته من الجمود العاطفي ومن استغلال الآخرين له أو من استغلاه هو للآخرين.

و قد يصل الأمر أحياناً إلى حد النفاق عندما يحاول البعض، من خلال قدراته التعاطفية، استغلال الآخرين لتحقيق أغراض شخصية، و العكس صحيح أيضاً، فقد يؤدي أحياناً التعاطف مع شخص آخر إلى دفعه إلى الابتزاز أو الاستغلال، فلا يميز بين الحدود التعاطفية والحدود الأخرى. وقد يتعاطف إنسان مع إنسان آخر يمر بضائقة مادية، وقد يفتح هذا التعاطف إمكانات كبيرة تساعد على البحث عن حلول لمشكلته، إلا أن التعاطف ليس مجبراً على حل مشكلته، خصوصاً إذا لم يكن قادراً على ذلك، أو كان الأمر فوق طاقته، وهذا هو المقصود بالتعاطف، أن يعيش التعاطف المشكلة وكأنها مشكلته دون أن ينسى أنها ليست كذلك تماماً، كي لا يصبح هو مشكلة بدلاً من أن يكون مساهماً في الحل.

* Prof. Dr. **Samer J. Rudwan**, Department of Education & Cultural Studies, College of Arts & Sciences, University of Nizwa, Oman. Email: srudwan@hotmail.com

وفي بعض الأحيان (وهذا ما يشبه النفاق الاجتماعي أو التملق)، يستغل بعض الناس قدرتنا التعاطفية التي قد لا نلاحظها في أنفسنا، بل الآخر هو الذي يلاحظها، لتحقيق مصالح ذاتية. وخصوصاً إذا لامس فينا أشياء نفتقدها أحياناً. فالمسألة متبادلة، وقد يستغل شخص قدراته التعاطفية لاستغلال الآخرين أو أن المتعاطف معه قد يستغل الذي يتعاطف معه لتحقيق غايات شخصية أيضاً.

وينبغي التمييز متى يكون التعاطف مطلوباً ومتى يكون غير مطلوب. فتعاطف القاضي مع الدوافع التي دفعت المجرم لارتكاب جرم ما لا يعني أن على القاضي أن يخرق القانون، والتعاطف هنا غير مطلوب، بل ضار. وكذلك لو أن شخص ما خالف قانون المرور مثلاً، فقد يتعاطف شرطي المرور معه لتأخره عن العمل مثلاً، ولكن هذا لا يعفيه من تحرير مخالفة، لأنه خالف القانون وعرض حياته وحيوات الناس للخطر، وعليه أن يعي احترام قانون السير وأن يخرج أبكر إلى عمله في المرة القادمة. والتعاطف مع رسوب الطالب في الامتحان أمر، و جعله ينجح دون أن يستحق، أمر آخر. كما أن التعاطف مع فتاة بحاجة لزوج لا يعني أن يقدم الرجل (المتزوج) نفسه زوجاً لها أو أن تقترح المرأة زوجها زوجاً لها من باب التعاطف فقط. والتمييز هنا بين التعاطف والحل المناسب أمر مهم قد يصعب البت فيه لأن الحدود الفاصلة بين التعاطف والحل تكون أحياناً دقيقة.

والإنسان بحاجة دائمة للتعاطف لأن العلاقات الإنسانية بين الأصدقاء، والأحبة، والأزواج إلخ، تقوم على هذا الأساس. وبدون التعاطف لا يمكن أن تنشأ وتستمر مثل هذه العلاقات على أسس سليمة. وقد ننحذب لأشخاص أو ننفر منهم تبعاً لدرجة إحساسنا بهم ومدى فهمنا المتبادل لوجهات النظر والآراء، حتى لو لم يتبنوها هم أنفسهم. إنه ذلك الفهم المشترك الذي تقوم على أساسه العلاقات الإنسانية. وهي عادة ما تكون تعاطفات بين المتساويين. ولكن في حالات الأزمات والمشاكل ونقاط الضعف، هناك حاجة أشد للتعاطف بأي ثمن، لأن الإنسان يكون أقرب لحالة من تشوش الرؤية، ولا يكون لديه قدرة كبيرة للتمييز بين التعاطف الحقيقي وغير الحقيقي. وقد نندفع أحياناً لقبول ما هو معروض علينا دون تفكير معمق. وهنا مكنم الخطر في مستغلي التعاطف. وقد نقع ضحية دون أن ندري، وقد لا نكتشف الأمر إلا بعد فوات الأوان.

وفي كل الأحوال، يحتاج البشر للتعاطف، سواء في حالات الرخاء أو الشدة، أو السواء أو عدم السواء لأن للتعاطف وظائف اجتماعية كثيرة تقوم عليها العلاقات الإنسانية بشكل عام لتقوية أواصر العلاقات الإنسانية، ولا يمكن منع إنسان ما من إبداء التعاطف تجاه إنسان آخر أو حالة إنسانية ما، حتى لو لم يُطلب منه ذلك، ولكن مسألة إيجاد الحل للمتعاطف معه تختلف حسب قدرة الإنسان المتعاطف وفهمه ودرجة تعاطفه وشعوره بالمشكلة التي أدت إلى تعاطفه.